



الهيئة العامة للأوقاف والشؤون الإسلامية
General Authority of Endowments and Islamic Affairs
إدارة الشؤون الثقافية والدعوية

دورة الإمام

ابن قيّم الجوزيّة

السابعة

التفسير

التعليق على **عمدة التفسير مختصر تفسير القرآن العظيم**
للحافظ ابن كثير تعليق على ما تيسر من جزء ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾

للشيخ محمد بن ميلود دحفالة

من 03 إلى 06 ربيع الأول 1447 هـ
من 27 إلى 2025/8/30 م

تفسير سورة النبأ
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الجزء ٣٠

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) ﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين فى تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها : ﴿ **عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ** ﴾ أى : عن أى شىء يتساءلون ؟ عن أمر القيامة ، وهو النبأ العظيم ، يعنى: الخبر الهائل المفظع الباهر. قال قتادة، وابن زيد: النبأ العظيم: البعث بعد الموت . وقال مجاهد: هو القرآن. والأظهر الأول لقوله: ﴿ **الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ** ﴾ يعنى: الناس فيه على قولين: مؤمن به وكافر. ثم قال تعالى متوعداً لمنكرى القيامة: ﴿ **كَلَّا سَيَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ** ﴾ ، وهذا تهديدٌ شديد ووعيد أكيد . ثم شرع تعالى يبيِّن قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره، فقال: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا** ﴾ ؟ أى : ممهدة للخلائق ذَلُولا لهم ، قارّةً ساكنة ثابتة ، ﴿ **وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا** ﴾ أى : جعلها لها أوتاداً أرساها بها وثبتها وقرّرها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها .

ثم قال : ﴿ **وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا** ﴾ يعني : ذكراً وأنثى ، يستمتع كل منهما بالآخر ، ويحصل التناسل بذلك ، كقوله : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾ [الروم : ٢١].

وقوله : ﴿ **وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا** ﴾ أى : قَطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعى فى المعايش فى عرض النهار . وقد تقدم مثل هذه الآية فى سورة « الفرقان » (١) . ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا** ﴾ أى: يغشى الناس ظلامه وسواده، كما قال: ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا** ﴾ [الشمس: ٤] ، وقال قتادة في قوله : ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا** ﴾ أى : سكناً . وقوله : ﴿ **وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا** ﴾ أى: جعلناه مشرقا مُنيراً مضيئاً ، ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجىء للمعاش والتكسب والتجارات،

---

(١) لعله يقصد الآية (٤٧) .

وغير ذلك . وقوله : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ يعنى : السموات السبع ، فى اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها ، وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ يعنى: الشمس المنيرة على جميع العالم التى يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم .

وقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ قال ابن عباس : ﴿ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ : الرياح . وكذا قال عكرمة، ومجاهد ، وقتادة: إنها الرياح . ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ أى : من السحاب . وكذا قال عكرمة أيضا، وأبو العالية ، والضحاك، والحسن . واختاره ابن جرير . والأظهر أن المراد بالمعصرات: السحاب ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ﴾ [الروم:٤٨] أى : من بينه. وقوله: ﴿ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ قال مجاهد، وقتادة ، والربيع بن أنس: ﴿ ثَجَّاجًا ﴾ : منصبا. وقال الثورى : متتابعاً. وقال ابن زيد: كثيرا .قال ابن جرير: ولا يعرف فى كلام العرب فى صفة الكثرة الثج ، وإنما الثج : الصب المتتابع . ومنه قول النبى ﷺ : « أفضلُ الحجّ العجّ والثجّ » (١) . يعنى: صَبّ دماء البُدْن. هكذا قال. قلت: وفى حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله ﷺ: « أنعت لك الكُرسُفَ » ـ يعنى: أن تحتشى بالقطن : قالت: يا رسول الله ، هو أكثر من ذلك ، إنما أثج ثجاً (٢) . وهذا فيه دَلالة على استعمال الثَّج فى الصَّبّ المتتابع الكثير ، والله أعلم .

وقوله: ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ أى:لنخرجَ بهذا الماء الكثير الطيب النافع المُبارَك ﴿حَبًّا﴾ يدخر للأناسى والأنعام ، ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ أى : خضراً يؤكل رطبا ، ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ أى : بساتين وحدائقَ من ثمرات متنوعة ، وألوان مختلفة ، وطعوم وروائح متفاوتة ، وإن كان ذلك فى بقعة واحدة من الأرض مجتمعًا ؛ ولهذا قال: ﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ قال ابن عباس، وغيره : مجتمعة . وهذه كقوله تعالى : ﴿ وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤] .

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) ﴾

(١) ابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٥) .

(٢) المسند (٦ / ٤٣٩) وأبو داود (٢٨٧) والترمذى (١٢٨) وقال : « حسن صحيح » .

يخبر تعالى عن يوم الفصل ، وهو يوم القيامة ، أنه مؤقت بأجل معدود ، لا يزاد عليه ولا ينقص منه ، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عز وجل ، كما قال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود:١٠٤] . ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ قال مجاهد : زُمَراً زمراً . قال ابن جرير : يعنى تأتى كل أمة مع رسولها ، كقوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء:٣١]. وقال البخارى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾: عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ما بين النفختين أربعون ». قالوا : أربعون يوماً ؟ قال : « أبيتُ » . قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : « أبيت » . قالوا : أربعون سنة ؟ قال : « أبيت ». قال : « ثم يُنزلُ الله من السماء ماءَ فينبتُونَ كما ينبتُ البقلُ ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبلَى ، إلا عظماً واحدا ، وهو عَجْبُ الذنَب ، ومنه يُرَكَّبُ الخَلْقُ يومَ القيامة » (١) .

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ أى: طرقا ومسالك لنزول الملائكة، ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ ، كقوله : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل:٨٨] ، وكقوله : ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥]. وقال هاهنا: ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أى: يخيل إلى الناظر أنها شيء، وليست بشيء، وبعد هذا تَذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر، كما قال: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧] ، وقال : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف:٤٧] .

وقوله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ أى : مرصدة مُعَدّة ، ﴿ لِلطَّاغِينَ ﴾ وهم : المَرَدة العصاة المخالفون للرسل، ﴿ مَآبًا ﴾ أى: مرجعا ومنقلبا ومصيرا ونُزُلا. وقال الحسن، وقتادة فى قوله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ يعنى: أنه لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز بالنار ، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتبس . وقال سفيان الثورى : عليها ثلاث قناطر . وقوله : ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ أى : ماكثين فيها أحقابا ، وهى جمع « حُقب » ، وهو : المدة من الزمان . وقد اختلفوا فى مقداره ، فقال ابن جرير قال على بن أبى طالب لهلال الهَجَرى : ما تجدونَ الحُقْبَ فى كتاب الله المنزل ؟ قال : نجده ثمانين سنة ، كل سنة اثنا عشر شهرا ، كل شهر ثلاثون يوما ، كل يوم ألف سنة (٢) . وهكذا رُوِىَ عن أبى هُرَيرة، وعبد الله بن عَمرو، وابن عباس ، وسعيد بن جُبَير ، وعَمرو بن ميمون ، والحسن ، وقتادة، والربيع بن أنس ، والضحاك . وعن الحسن والسّدى أيضا : سبعون سنة كذلك . وعن عبد الله بن عمرو : الحُقبُ أربعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون . وقال السّدى : ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾: سبعمائة حُقب ، كل حُقب سبعون سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً ، كل يوم كألف سنة مما تعدون . وقد قال مقاتل ابن حَيّان : إن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ . وقال خالد بن مَعْدان: هذه الآية وقوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ [هود:١٠٧] فى أهل التوحيد . رواهما ابن جرير.

---

(١) البخارى (٤٩٣٥).

(٢) ابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٨) .

ثم قال : يحتمل أن يكون قوله : ﴿ لابثين فيها أحقابا ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ﴾ ، ثم يحدث الله لهم بعد ذلك عذابا من شكل آخر ونوع آخر . ثم قال : والصحيح أنها لا انقضاء لها، كما قال قتادة والربيع بن أنس .

وقوله : ﴿ لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ﴾ أى : لا يجدون فى جهنم برداً لقلوبهم ، ولا شرابا طيبا يتغذون به . ولهذا قال : ﴿ إلا حميما وغساقا ﴾ قال أبو العالية : استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق. وكذا قال الربيع بن أنس . فأما الحميم : فهو الحار الذى قد انتهى حره وحُموه . والغَسَّاق : هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم ، فهو بارد لا يستطاع من برده ، ولا يواجه من نتنه . وقد قدمنا الكلام على الغساق فى سورة « ص » (١) بما أغنى عن إعادته، أجارنا الله من ذلك، بمنه وكرمه . قال ابن جرير : وقيل : المراد بقوله: ﴿ لا يذوقون فيها بردا ﴾ يعنى : النوم .

وقوله : ﴿ جزاء وفاقا ﴾ أى : هذا الذى صاروا إليه من هذه العقوبة وَفق أعمالهم الفاسدة التى كانوا يعملونها فى الدنيا . قاله مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد . ثم قال: ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا ﴾ أى: لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون ، ﴿ وكذبوا بآياتنا كذابا ﴾ أى : وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التى أنزلها على رسله ، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة . وقوله : ﴿ كذابا ﴾ أى : تكذيبا ، وهو مصدر من غير الفعل . قالوا : وقد سُمع أعرابى يستفتى الفَرَّاءَ على المروة : الحلقُ أحبّ إليك أو القِصار ؟

وقوله تعالى : ﴿ وكل شىء أحصيناه كتابا ﴾ أى : وقد علمنا أعمالَ العباد كلهم ، وكتبناها عليهم، وسنجزيهم على ذلك ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وقوله : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ أى : يقال لأهل النار : ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه ، ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ [ص:٥٨] . عن عبد الله بن عمرو قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ . قال : فهم فى مزيد من العذاب أبدا .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم، فقال: ﴿ إن للمتقين مفازا ﴾ قال ابن عباس والضحاك : متنزها . وقال مجاهد ، وقتادة : فازوا ، فنجوا من النار. والأظهر هاهنا قولُ ابن عباس ؛ لأنه قال بعده: ﴿ حدائق ﴾ ، وهى البساتين من النخيل وغيرها ﴿ وأعنابا. وكواعب أترابا ﴾ أى: حوراً كواعب. قال ابن عباس ومجاهد ، وغير واحد : ﴿كواعب﴾ أى : نواهد ، يعنون أن ثُدُيَّهن نواهد لم يتدلين لأنهن أبكار عُرُب أتراب ، أى :

(١) راجع الآية (٥٧) .

فى سن واحدة ، كما تقدم بيانه فى سورة « الواقعة » .

وقوله : ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ قال ابن عباس: مملوءة متتابعة. وقال عكرمة: صافية. وقال مجاهد ، والحسن وقتادة ، وابن زيد : ﴿ دِهَاقًا ﴾ : الملأى المترعة . وقال مجاهد ، وسعيد بن جبير : هى المتتابعة. وقوله : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا ﴾ ، كقوله : ﴿ لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور: ٢٣] أى: ليس فيها كلام لاغٍ عَارٍ عن الفائدة، ولا إثم كذب، بل هى دار السلام ، وكل كلام فيها سالم من النقص . وقوله : ﴿ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ أى :هذا الذى ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه ، بفضله ومنّه وإحسانه ورحمته؛ ﴿ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ أى : كافياً وافراً شاملاً كثيراً ؛ تقول العرب : «أعطانى فأحسبنى » أى : كفانى . ومنه « حسبى الله » ، أى : الله كافىّ .

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠) ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله ، وأنه رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، وأنه الرحمن الذى شملت رحمته كل شىء . وقوله : ﴿ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أى : لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه ، كقوله : ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة:٢٥٥] ، وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [هود:١٠٥] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ : اختلف المفسرون فى المراد بالروح هاهنا، ما هو ؟ على أقوال : أحدها : رواه العوفى ، عن ابن عباس : أنهم أرواح بنى آدم . الثانى : هم بنو آدم . قاله الحسن ، وقتادة ، وقال قتادة : هذا مما كان ابن عباس يكتمه . الثالث : أنهم خَلق من خلق الله ، على صُور بنى آدم ، وليسوا بملائكة ولا ببشر ، وهم يأكلون ويشربون . قاله ابن عباس ، ومجاهد، وأبو صالح والأعمش. الرابع : هو جبريل . قاله الشعبى، وسعيد بن جبير، والضحاك. ويستشهد لهذا القول بقوله: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٣، ١٩٤] . وقال مقاتل بن حيان : الروح : أشرف الملائكة ، وأقرب إلى الرب عز وجل ، وصاحب الوحى . والخامس:أنه القرآن. قاله ابن زيد، كقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ الآية [الشورى:٥٢] . والسادس : أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات ؛ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس: قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ ، قال : هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً . وتَوَقّفَ ابنُ جرير فلم يقطَع بواحد من هذه الأقوال كلها ، والأشبه ـ والله أعلم ـ أنهم بنو آدم .

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ ، كقوله : ﴿ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [هود:١٠٥] . وكما

ثبت فى الصحيح: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل» (١). وقوله: ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أى: حقا، ومن الحق: «لا إله إلا الله » ، كما قاله أبو صالح، وعكرمة . وقوله : ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ أى : الكائن لا محالة ، ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴾ أى : مرجعا وطريقا يهتدى إليه ومنهجا يمر به عليه .

وقوله: ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ يعنى: يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريبا، لأن كل ما هو آت آت . ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أى: يعرض عليه جميع أعماله، خيرها وشرها ، قديمها وحديثها، كقوله: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ [الكهف:٤٩] ، وكقوله : ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة:١٣] . ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ أى : يود الكافر يومئذ أنه كان فى الدار الدنيا ترابا، ولم يكن خُلِقَ، ولا خرج إلى الوجود. وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سُطِّرت عليه بأيدى الملائكة السَّفَرة الكرام البَرَرة . وقيل : إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التى كانت فى الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذى لا يجور ،حتى إنه ليقتص للشاة الجمَّاء من القرناء . فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها : كونى ترابا ، فتصير ترابا . فعند ذلك يقول الكافر : ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ أى : كنت حيوانا فأرجع إلى التراب . وقد ورد معنى هذا فى حديث الصّور المشهور (٢) .

---

(١) البخارى (٨٠٦) ، ومسلم (١٨٢ / ٢٩٩) .

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام ،وكذلك تخريجه هناك .

تفسير سورة النازعات
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ
سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ
يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا
كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾
فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾

قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، وسعيد بن جبير : ﴿ النَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ : الملائكة ، يعنون حين تنزع أرواح بنى آدم ، فمنهم من تأخذ روحه بعُنف فتُغرق فى نزعها ، ومنهم مَن تأخذ روحه بسهولة وكأنما حَلَّته من نشاط ، وهو قوله : ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ قاله ابن عباس .

وعن ابن عباس : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ : هى أنفس الكفار ، تُنزَع ثم تُنشَط ، ثم تغرق فى النار . رواه ابن أبى حاتم . وقال مجاهد: ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾: الموت. وقال الحسن ، وقتادة : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ : هى النجوم . وقال عَطَاءُ بنُ أبى رَباح فى قوله : ﴿وَالنَّازِعَاتِ ﴾ و ﴿ النَّاشِطَاتِ ﴾ : هى القسىّ فى القتال . والصحيح الأول ، وعليه الأكثرون .

وأما قوله: ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾، فقال ابن مسعود : هى الملائكة . ورُوى عن على ، ومجاهد ، وسعيد بن جُبَير مثلُ ذلك . وعن مجاهد : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ : الموت . وقال قتادة : هى النجوم. وقال عطاء بن أبى رباح : هى السفن . وقوله : ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾: رُوى عن على ، ومسروق، ومجاهد: يعنى الملائكة؛ قال الحسن: سبقت إلى الإيمان والتصديق به . وعن مجاهد : الموت . وقال قتادة : هى النجوم . وقال عطاء : هى الخيل فى سبيل الله . وقوله : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ قال على ، ومجاهد ، وعطاء: هى الملائكة ، زاد الحسن : تدبر الأمر من السماء إلى الأرض. يعنى: بأمر ربها عز وجل . ولم يختلفوا فى هذا ، ولم يقطع ابن جرير بالمراد فى شىء من ذلك ، إلا أنه حكى فى ﴿ الْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ : أنها الملائكة ، ولا أثبت ولا نفى .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية.

وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ،وغير واحد . وعن مجاهد : أما الأولى ـ وهى قوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ ـ فكقوله جلت عظمته : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ [المزمل:١٤] ، والثانية ـ وهى الرادفة ـ فهى كقوله : ﴿ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة: ١٤] . وقد روى الإمام أحمد عن أبى بن كعب، قال : قال رسول الله ﷺ : « جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » . فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن جعلت صلاتى كلها عليك ؟ قال : «إذاً يكفيك الله ما أهمَّك من دنياك وآخرتك ». وقد رواه الترمذى ، وابن جرير، ولفظ الترمذى: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: « يا أيها الناس، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » (١).

وقوله: ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ قال ابن عباس: يعنى خائفة. وكذا قال مجاهد ، وقتادة . ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ أى: أبصار أصحابها. وإنما أضيف إليها؛ للملابسة، أى: ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال . وقوله : ﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ ؟ يعنى : مشركى قريش ومن قال بقولهم فى إنكار المعاد ، يستبعدون وقوعَ البعث بعد المصير إلى الحافرة ، وهى القبور ، قاله مجاهد. وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها ؛ ولهذا قالوا: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾ ؟ وقرئ : « ناخرة ». وقال ابن عباس،ومجاهد،وقتادة : أى بالية . قال ابن عباس : وهو العظم إذا بلى ودَخلت الريح فيه ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ .وعن ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير: الحافرة : الحياة بعد الموت. وقال ابن زيد : الحافرة : النار. وما أكثر أسماءها ! هى النار، والجحيم ،وسقر ،وجهنم، والهاوية ، والحافرة، ولظى، والحُطَمة . وأما قولهم : ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ ، فقال محمد بن كعب: قالت قريش : لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أى : فإنما هو أمر من الله لا مثنوية فيه ولا تأكيد ، فإذا الناس قيام ينظرون ، وهو أن يأمر تعالى إسرافيلَ فينفخ فى الصور نفخَة البعث ، فإذا الأولون والآخرون قيامٌ بين يَدَى الربّ عز وجل ينظرون، كما قال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء:٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل:٧٧]. قال مجاهد : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ : صيحة واحدة . وقال الحسن البصرى : زجرة من الغضب . وقال أبو مالك ، والربيع بن أنس : زجرة واحدة : هى النفخة الآخرة .

وقوله : ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : الأرض كلها . وكذا قال سعيد بن جُبَير ، وقتادة . وقال عكرمة ، والحسن ، والضحاك ، وابن زيد : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : وجه الأرض . وقال مجاهد : كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها . قال : و﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ :

(١) المسند (٥ / ١٣٦) والترمذى (٢٤٥٧) وابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٢١) وقال الترمذى : « حسن صحيح » .

المكان المستوى . وقال الربيع بن أنس : ﴿ فإذا هُم بالسَّاهِرَة ﴾ ، يقول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لله الْوَاحد القَهَّار ﴾ [إبراهيم:٤٨] ، ويقول : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾ [طه:١٠٥، ١٠٦] . وقال : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف: ٤٧] : وبرزت الأرض التى عليها الجبال ، وهى لا تعد من هذه الأرض ، وهى أرض لم يعمل عليها خطيئة ، ولم يهراق عليها دم .

﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلۡـَٔايَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡـَٔاخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾

يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه ابتعثه إلى فرعون ، وأيده بالمعجزات ، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه ، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر . وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به ؛ ولهذا قال فى آخر القصة: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ .

فقوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ ؟ أى: هل سمعت بخبره ؟ ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ أى : كلمه نداء، ﴿ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ أى : المطهر ، ﴿ طُوًى ﴾ : وهو اسم الوادى على الصحيح ، كما تقدم فى سورة «طه» . فقال له : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أى : تجبر وتمرد وعتا ، ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ ؟ أى : قل له : هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تَزكَّى به ، أى : تسلم وتطيع . ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أى : أدلك إلى عبادة ربك ، ﴿ فَتَخْشَىٰ ﴾ أى : فيصير قلبك خاضعا له مطيعا خاشياً بعد ما كان قاسيا خبيثا بعيدا من الخير . ﴿ فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ يعنى : فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قويةً، ودليلا واضحا على صدق ما جاءه به من عند الله ، ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾ أى: فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة . وحاصلُه أنه كفرَ قلبُه فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره ، وعلمُهُ بأن ما جاء به حق لا يلزم منه أنه مؤمن به ؛ لأن المعرفة علمُ القلب ، والإيمان عمله ،وهو الانقياد للحق والخضوع له .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ أى : فى مقابلة الحق بالباطل ، وهو جَمعُهُ السحرةَ ليقابلوا ما جاء به موسى ، عليه السلام ، من المعجزة الباهرة ، ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ أى : فى قومه ، ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ ﴾ أى : انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتمردين فى الدنيا ، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [هود : ٩٩] ، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١] . هذا هو الصحيح

فى معنى الآية، أن المراد بقوله : ﴿ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ ﴾ أى : الدنيا والآخرة ، وقيل : المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية . وقيل : كفره وعصيانه . والصحيح الذى لا شك فيه الأول . وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ أى : لمن يتعظ وينزجر .

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا (٣٢) مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٣) ﴾

يقول تعالى محتجاً على منكرى البعث فى إعادة الخلق بعد بدئه : ﴿ أَأَنتُمْ ﴾: أيها الناس ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ﴾ ؟ يعنى: بل السماءُ أشدّ خلقاً منكم ، كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر:٥٧] ، وقال : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس:٨١] ، فقوله: ﴿ بَنَاهَا ﴾، فسره بقوله: ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ أى: جعلها عالية البناء ، بعيدة الفناء ، مستوية الأرجاء ، مكللة بالكواكب فى الليلة الظلماء. وقوله: ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أى: جعل ليلها مظلماً أسود حالكا، ونهارها مضيئا مشرقا نيرا واضحا . قال ابن عباس : أغطش ليلها : أظلمه . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد ابن جبير، وجماعة كثيرون . ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أى: أنار نهارها . وقوله : ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ ، فسره بقوله: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾. وقد تقدم فى سورة « حم السجدة » (١) أن الأرض خلقت قبل السماء ، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء ، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل . وهذا معنى قول ابن عباس ، وغير واحد ، واختاره ابن جرير . وقوله : ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ أى: قررها وأثبتها وأكّدها فى أماكنها، وهو الحكيم العليم ، الرؤوف بخلقه الرحيم . وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ أى : دحا الأرض فأنبع عيونها ، وأظهر مكنونها ، وأجرى أنهارها ، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها ،وثبت جبالها ، لتستقر بأهلها ويقر قرارها ، كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التى يأكلونها ويركبونها مدةَ احتياجهم إليها فى هذه الدار إلى أن ينتهى الأمد ، وينقضى الأجل .

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٤١) يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ (٤٤) إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا (٤٦) ﴾

(١) عند الآية (٩) . وهى سورة فصلت .

يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴾ وهو يوم القيامة. قاله ابن عباس، سميت بذلك لأنها تَطُم على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر:٤٦]. ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴾ أي: حينئذ يتذكرُ ابنُ آدم جميع عمله خيره وشره، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ [الفجر:٢٣]. ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ أي: أظهرت للناظرين فرآها الناس عيانا، ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ أي: تَمرّد وعتا، ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي: قدمها على أمر دينه وأخراه، ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ أي: فإن مصيرَه إلى الجحيم، وإن مطعمه من الزقوم، ومشربه من الحميم. ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ أي: خاف القيام بين يدى الله عز وجل، وخاف حُكْمَ الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، وردَّها إلى طاعة مولاها ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ أي: منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء.

ثم قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا. فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا. إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ أي: ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مَردها ومَرجعها إلى الله عز وجل، فهو الذى يعلم وقتها على التعيين، ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال هاهنا: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾. ولهذا لما سأل جبريلُ رسولَ الله ﷺ عن وقت الساعة قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» (١). وقوله: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ أى: إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه، فمن خشى الله وخاف مقامه ووعيده، اتبعك فأفلح وأنجح، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك. وقوله: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أي: إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مُدّة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضُحى من يوم. قال جُويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾، أما ﴿عَشِيَّةً ﴾: فما بين الظهر إلى غروب الشمس، ﴿ أَوْ ضُحَاهَا ﴾: ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار.

وقال قتادة: وقت الدنيا فى أعين القوم حين عاينوا الآخرة.

---

(١) جزء من حديث طويل، رواه مسلم (٨ / ١).

تفسير سورة عبس
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ربع
الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن
جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ
(١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) ﴾

ذكر غيرُ واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش ، وقد طَمع فى إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم ـ وكان ممن أسلم قديما ـ فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شىء ويلح عليه ، ووَدّ النبى ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل ؛ طمعا ورغبة فى هدايته . وعَبَس فى وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه ، وأقبل على الآخر ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ ؟ أى : يحصل له زكاة وطهارة فى نفسه، ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ أى: يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم ، ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴾ أى : أما الغنى فأنت تتعرض له لعله يهتدى ، ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾ ؟ أى : ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة. ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ أى : يقصدك ويؤمك ليهتدى بما تقول له ، ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ أى : تتشاغل . ومن هاهنا أمر الله عز وجل رسوله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحداً ، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغنى ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء، والصغار والكبار. ثم الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم،وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

وروى أبو يعلى وابن جرير عن عائشة قالت: أنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ فى ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدنى . قالت : وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين. قالت: فجعل النبى ﷺ يُعرض عنه ويقبل على الآخر ، ويقول : « أترى بما أقول بأسا ؟ ». فيقول: لا. ففى هذا أنزلت: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾. وقد روى الترمذى مثله (١) .

وهكذا ذكر عروة بن الزبير ، ومجاهد ، وأبو مالك ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وغير واحد من السلف والخلف:أنها نزلت فى ابن أم مكتوم . والمشهور أن اسمه عبد الله ،

---

(١) أبو يعلى فى المسند (٥ / ٤٣١) وابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٣٢) والترمذى (٣٣٣١) ، وصححه الألبانى .

ويقال: عمرو . والله أعلم .

وقوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أى : هذه السورة ، أو الوصية بالمساواة بين الناس فى إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم . وقال قتادة والسدى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ يعنى: القرآن، ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أى : فمن شاء ذكر الله فى جميع أموره . ويحتمل عود الضمير على الوحى ؛ لدلالة الكلام عليه .

وقوله: ﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴾ أى: هذه السورة أو العظة ، وكلاهما متلازم ، بل جميع القرآن ﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴾ أى : معظمة موقرة ﴿ مَرْفُوعَةٍ ﴾ أى : عالية القدر ، ﴿مُطَهَّرَةٍ ﴾ أى : من الدنس والزيادة والنقص . وقوله : ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن زيد : هى الملائكة. وقال وهب بن منبه: هم أصحاب محمد ﷺ ، وقال قتادة : هم القراء . وقال ابن جريج ، عن ابن عباس : السفرة بالنبطية : القراء . وقال ابن جرير : الصحيح أن السفرة الملائكة ، والسفرة يعنى بين الله وبين خلقه ، ومنه يقال: السفير : الذى يسعى بين الناس فى الصلح والخير . وقال البخارى : سَفَرَةٌ : الملائكة . سَفرت : أصلحت بينهم . وجعلت الملائكةُ إذا نَزَلت بوَحْى الله وتأديته كالسفير الذى يصلح بين القوم (١) .

وقوله: ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ أى : خُلقهم كريم حَسَنٌ شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة . ومن هاهنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد . روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السَّفَرَة الكرام البَرَرَة ، والذى يقرؤه وهو عليه شاق له أجران » . أخرجه الجماعة (٢) .

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بنى آدم : ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس : ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ ﴾ : لعن الإنسان . وكذا قال أبو مالك . وهذا لجنس الإنسان المكذب ؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند ،بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم . قال ابن جريج :

---

(١) البخارى (٨ / ٦٩١ فتح) .

(٢) المسند (٦ / ٤٨) والبخارى (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨ / ٢٤٤) وأبو داود (١٤٥٤) والترمذى (٢٩٠٤) ، والنسائى فى الكبرى (٨٠٤٧) وابن ماجه (٣٧٧٩) .

﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : ما أشد كفره ! وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد : أى شىء جعله كافراً ؟ أى : ما حمله على التكذيب بالمعاد. وقال قتادة : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : ما ألعنه .

ثم بين تعالى له كيف خَلَقه الله من الشىء الحقير ، وأنه قادر على إعادته كما بدأه ، فقال: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَه ﴾ أى : قدر أجله ورزقه وعمله وشقى أو سعيد . ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَه ﴾ قال ابن عباس: ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه. وكذا قال عكرمة، والضحاك، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدى ، واختاره ابن جرير . وقال مجاهد : هذه كقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣] أى : بيَّناه وأوضحناه وسَهلنا عليه عمله، وهكذا قال الحسن ، وابن زيد . وهذا هو الأرجح، والله أعلم.

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أى : إنه بعد خلقه له ﴿ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أى : جعله ذا قبر . والعرب تقول : « قبرتُ الرجل » : إذا وَلى ذلك منه ، وأقبره الله . وعَضبتُ قرن الثور ، وأعضبه الله ، وبترت ذنب البعير وأبتره الله. وقوله : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أى : بعثه بعد موته ، ومنه يقال : البعث والنشور ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠]، ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا (١) ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة:٢٥٩]. وروى ابن أبى حاتم عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ قال: «يأكل الترابُ كلَّ شىء من الإنسان إلا عَجْبُ ذَنَبه ». قيل: وما هو يا رسول الله ؟ قال : «مثل حبة خردل منه ينشؤون ». وهذا الحديث ثابت فى الصحيح عن أبى هريرة ، بدون هذه الزيادة ، ولفظه : « كل ابن آدم يَبْلى إلا عَجْبُ الذَّنَب ، منه خلق وفيه يُركَّب » (٢) .

وقوله : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال ابن جرير : يقول : كلا ، ليس الأمر بقول هذا الإنسان الكافر ؛ من أنه قد أدى حق الله عليه فى نفسه وماله ، ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ يقول : لم يُؤد ما فُرض عليه من الفرائض لربه عز وجل . ثم روى ـ هو وابن أبى حاتم ـ عن مجاهد قوله: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال : لا يقضى أحد أبدا كل ما افتُرض عليه . وحكاه البغوى ، عن الحسن البصرى، بنحو من هذا . ولم أجد للمتقدمين فيه كَلاماً سوى هذا . والذى يقع لى فى معنى ذلك ـ والله أعلم ـ أن المعنى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أى : بعثه ، ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَه ﴾ أى : لا يفعله الآن حتى تنقضى المدة،ويفرغ القدر من بنى آدم ممن كتب تعالى له أن سيُوجَدُ منهم،ويخرج إلى الدنيا ، وقد أمر به تعالى كونا وقدرا ، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ فيه امتنان ، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاما بالية وترابا متمزقا، ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾

---

(١) « ننشرها » : بالراء ، وقد تقدم بيان ذلك فى سورة البقرة .

(٢) البخارى (٤٨١٤) ومسلم (٢٩٥٥ / ١٤١) .

أى : أنزلناه من السماء على الأرض ، ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴾ أى : أسكناه فيها فَدَخل فى تُخُومها وتَخلَّل فى أجزاء الحب المودَع فيها ،فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض ، ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ فالحب : كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو : الفصْفصة التى تأكلها الدواب رطبة . ويقال لها: القَتّ أيضا .قال ذلك ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك، والسدى . وقال الحسن البصرى : القضب: العلف . ﴿ وَزَيْتُونًا ﴾ : وهو معروف ، وهو أدمٌ وعصيره أدم ، ويستصبح به ، ويدهن به . ﴿ وَنَخْلاً ﴾ يؤكل بلحا بسرا ، ورطبا ، وتمرا ، ونيئا ، ومطبوخا ،ويعتصر منه رُبٌّ وخل. ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ أى: بساتين . قال الحسن، وقتادة : ﴿ غُلْبًا ﴾:نخل غلاظ كرام . وقال ابن عباس ، ومجاهد : «الحدائق» : كل ما التف واجتمع. وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ غُلْبًا ﴾: الشجر الذى يستظل به. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس :﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ أى: طوال . وقال عكرمة : ﴿ غُلْبًا﴾ أى : غلاظ الأوساط. وفى رواية : غلاظ الرقاب ، ألم تر إلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة قيل: والله إنه لأغلب. رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ : أما الفاكهة فهو ما يتفكه به من الثمار . قال ابن عباس : الفاكهة: كل ما أكل رطبا . والأبّ : ما أنبتت الأرض ، مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس ـ وفى رواية عنه: هو الحشيش للبهائم . وقال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبو مالك : الأب : الكلأ . وعن مجاهد، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد : الأب للبهائم كالفاكهة لبنى آدم . وعن عطاء : كل نبت على وجه الأرض فهو أبٌّ . وقال الضحاك : كل شىء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو أبٌّ. وقال أبو السائب : ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس وتأكل الأنعام . وقال ابن عباس: الأب: الكلأ والمرعى. وكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد، وغير واحد. وعن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾، فلما أتي على هذه الآية: ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ قال : عرفنا ما الفاكهة ، فما الأب ؟ فقال: لعمرك يا بن الخطاب إن هذا لهو التكلف . فهو إسناد صحيح ، وقد رواه غير واحد عن أنس به . هو محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه ، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض ، لقوله : ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ . وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ أى : عيشة لكم ولأنعامكم فى هذه الدار إلى يوم القيامة .

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

قال ابن عباس : ﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ : اسم من أسماء يوم القيامة، عظمه الله، وحَذّره عباده. قال ابن جرير : لعله اسم النفخة فى الصور . وقال البَغَوىّ : ﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ : يعنى صيحة القيامة؛

سميت بذلك لأنها تَصُخّ الأسماع ، أى : تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تُصمّها .

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ أى : يراهم ، ويفر منهم ، ويبتعد عنهم؛ لأن الهول عظيم ، والخطب جليل . قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه، أىّ بعل كنتُ لك ؟ فتقول : نعم البعل كنتَ ! وتثنى بخير ما استطاعت ، فيقول لها : فإنى أطلبُ إليك اليومَ حسنةً واحدةً تهبيها لى لعلى أنجو مما ترين . فتقول له : ما أيسر ما طلبتَ ، ولكن لا أطيق أن أعطيك شيئا أتخوف مثل الذى تخاف . قال : وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول : يا بنى ، أىّ والد كنتُ لك ؟ فيثنى بخير . فيقولُ له : يا بنى ، إنى احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلى أنجو بها مما ترى . فيقول ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت، ولكنى أتخوف مثل الذى تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا. يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ . وفى الحديث الصحيح ـ فى أمر الشفاعة : أنه إذا طلب إلى كل من أولى العزم أن يشفع عند الله فى الخلائق ، يقول : نفسى نفسى ، لا أسأله اليوم إلا نفسى ، حتى إن عيسى ابن مريم يقول : لا أسأله اليومَ إلا نفسى ، لا أسأله مريم التى ولدتنى . ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ (١). قال قتادة : الأحب فالأحبَ ، والأقرب فالأقربَ ، من هول ذلك اليوم .

وقوله : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أى : هو فى شُغُل شاغل عن غيره . روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال:قال رسول الله ﷺ: « تحشرون حفاة عراة مشاة غُرلاً » . قال : فقالت زوجته : يا رسول الله ، أوَ يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : « ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ ». أو قال: «ما أشغله عن النظر». وعن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: « تُحشَرون حُفاة عُرَاة غُرْلاً ». فقالت امرأة : أيبصر ـ أو : يرى ـ بعضنا عورة بعض ؟ قال: « يا فلانة ، ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ ». ثم قال الترمذى : وهذا حديث حسن صحيح (٢). وروى النسائى عن عائشة ،أن رسول الله ﷺ قال:« يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرلا » . فقالت عائشة: يا رسول الله، فكيف بالعورات ؟ فقال: « ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ » (٣). انفرد به النسائى .

وقوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى: يكون الناس هنالك فريقين: وجوه مسفرة، أى: مستنيرة، ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى: مسرورة فرحة من السرور فى قلوبهم، قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء هم أهل الجنة. ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أى : يعلوها ويغشاها قترة، أى: سواد. وقال ابن عباس: ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أى: يغشاها سواد الوجوه. وقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ أى: الكفرة قلوبهم، الفجرة فى أعمالهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٧].

(١) مضت أحاديث الشفاعة عند تفسير أول سورة الإسراء . فانظرها .

(٢) الترمذى (٣٣٣٢) . (٣) النسائى (٢٠٨٣) ، وصححه الألبانى .

تفسير سورة التكوير
وهى مكية

روى الإمام أحمد :عن ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ: « من سرَّه أن ينظر إلىّ يوم القيامة كأنه رأىُ عين فليقرأ :﴿ إذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، و﴿ إذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ ، و﴿ إذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ » . وهكذا رواه الترمذى (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤) ﴾

قال ابن عباس :﴿ إذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ يعنى: أظلمت وعنه : ذهبت ، وقال مجاهد : اضمحلّت وذَهَب . وكذا قال الضحاك. وقال قتادة : ذهب ضوؤها . وقال سعيد بن جبير: ﴿كُوِّرَتْ ﴾: غُوّرت. وقال الربيع بن خثَيم: ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ يعنى : رمى بها .وقال زيد بن أسلم : تقع فى الأرض . قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا فى ذلك أن التكوير جَمعُ الشىء بعضه إلى بعض، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله: ﴿كُوِّرَتْ﴾: جمع بعضها إلى بعض ، ثم لفت فرمى بها ، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها . روى عن البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « الشمس والقمر يكوران يوم القيامة » . انفرد به البخارى (٢) .

وقوله : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ أى: انتثرت ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار:٢] ، وأصل الانكدار : الانصباب .قال أبى بن كعب : ست آيات قبل يوم القيامة ، بينا الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ، ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش ، فماجوا بعضهم فى بعض :

---

(١) المسند (٤٨٠٦)والترمذى (٣٣٣٣) وقال : « حديث حسن غريب » ، وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٣٢٠٠) .

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال : اختلطت ، ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ قال : أهملها أهلها ، ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قال : قالت الجن : نحن نأتيكم بالخبر . قال : فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجّجُ ، قال : فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا، قال فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم. رواه ابن جرير (١) وهكذا قال مجاهد والربيع بن خُثَيم، والحسن البصرى، وأبو صالح، وحماد بن أبى سليمان ، والضحاك فى قوله : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ أى : تناثرت .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ أى : زالت عن أماكنها ونُسفت، فتركت الأرض قاعا صفصفا . وقوله :﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ قال عكرمة ، ومجاهد: عشار الإبل .قال مجاهد : ﴿عُطِّلَتْ ﴾: تركت وسُيِّبت .وقال أبى بن كعب ، والضحاك : أهملها أهلها : وقال الربيع ابن خُثَيم: لم تحلب ولم تُصَرّ، تخلى منها أربابها .وقال الضحاك : تركت لا راعى لها .والمعنى فى هذا كله متقارب . والمقصود: أن العشار من الإبل ـ وهى : خيارها والحوامل منها التى قد وَصَلت فى حملها إلى الشهر العاشر ، واحدها: عُشَراء ، ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع ـ قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها ، بعد ما كانوا أرغب شىء فيها ، بما دَهَمهم من الأمر العظيم المُفظع الهائل ، وهو أمر القيامة وانعقاد أسبابها ، ووقوع مقدماتها . وقيل : بل يكون ذلك يوم القيامة ، يراها أصحابها كذلك ولا سبيل لهم إليها . وقد قيل فى العشار: إنها السحاب يُعطَّل عن المسير بين السماء والأرض ، لخراب الدنيا . وقيل : إنها الأرض التى تُعشَّر . وقيل : إنها الديار التى كانت تسكن تُعَطَّل لذهاب أهلها . حكى هذه الأقوال كلها الإمام القرطبى ، ورجح أنها الإبل ، وعزاه إلى أكثر الناس. قلت : بل لا يعرف عن السلف والأئمة سواه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أى : جمعت . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام:٣٨]. قال ابن عباس : يحشر كل شىء حتى الذباب. رواه ابن أبى حاتم . وكذا قال الربيع بن خُثَيم والسّدىّ ، وغير واحد. وكذا قال قتادة فى تفسير هذه الآية : إن هذه الخلائق موافية فيقضى الله فيها ما يشاء .وقال عكرمة: حشرها : موتها . وقد تقدم عن أبىّ بن كعب أنه قال : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾: اختلطت .قال ابن جرير: والأولى قَولُ من قال : ﴿ حُشِرَتْ ﴾ : جُمعت ، قال الله تعالى : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ [ص:١٩]، أى: مجموعة .

وقوله :﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قال على لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال: البحر . فقال : ما أراه إلا صادقا . ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ [الطور:٦] ، ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِرَتْ﴾ .وقال ابن عباس وغير واحد : يرسل الله عليها الدّبور فتسعرها ، وتصير ناراً تأجج ، وقد تقدم الكلام

(١) ابن جرير فى التفسير (٤١/٣٠) .

على ذلك عند قوله : ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ . وقال مجاهد ، والحسن بن مسلم : ﴿ سُجِّرَت ﴾ : أوقدت . وقال الحسن : يبست . وقال الضحاك ، وقتادة : غاض ماؤها فذهب ولم يبق فيها قطرة . وقال الضحاك أيضا :﴿ سُجِّرَت ﴾ فجرت. وقال السدى: فتحت وسيرت . وقال الربيع ابن خُثَيم: ﴿ سُجِّرَت ﴾ : فاضت .

وقوله : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ أى : جمع كل شكل إلى نظيره ، كقوله : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات:٢٢] .وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال: ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة . وقال مجاهد : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال : الأمثال من الناس جمع بينهم . وكذا قال الربيع بن خُثَيم والحسن، وقتادة. واختاره ابن جرير ، وهو الصحيح .

وقوله: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾، هكذا قراءة الجمهور: ﴿ سُئِلَت ﴾. والموؤودة هى التى كان أهل الجاهلية يدسونها فى التراب كراهية البنات، فيوم القيامة تسأل الموؤودة على أى ذنب قتلت، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا ؟! وقال ابن عباس : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَت ﴾ أى : سألت . وكذا قال أبو الضحى : « سألت » أى : طلبت بدمها. وعن السدى، وقتادة ، مثله . وقد وردت أحاديث تتعلق بالموؤودة ، فروى الإمام أحمد عن عائشة، عن جُدَامة [١] بنت وهب ـ أخت عكاشة ـ قالت : حضرتُ رسولَ الله ﷺ فى ناس وهو يقول : « لقد هممت أن أنهى عن الغيلَة ، فنظرت فى الروم وفارس فإذا هم يُغيلُونَ أولادهم، ولا يضر أولادهم ذلك شيئا ». ثم سألوه عن العزل ، فقال رسول الله ﷺ: « ذلك الوأد الخفى ، وهو الموؤودة سئلت » . ورواه مسلم ورواه أيضا ابن ماجه، وأبو داود والترمذى، والنسائى[٢]. وروى أحمد عن حسناء [٣] ابنة معاوية الصُّرَيمية ، عن عمها قال : قلت: يا رسول الله ، من فى الجنة ؟ قال: « النبى فى الجنة ، والشهيد فى الجنة ، والمولود فى الجنة ، والموؤودة فى الجنة » [٤] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ : قال الضحاك : أعطى كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله. وقال قتادة : صحيفتك يا بن آدم ، تُملى فيها ، ثم تطوى ، ثم تنشر عليك يوم القيامة ، فلينظر رجل ماذا يملى فى صحيفته .

وقوله : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ قال مجاهد: اجتذبت . وقال السدى : كشفت . وقال الضحاك: تنكشط فتذهب. وقوله: ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ قال السدى : أحميت . وقال قتادة : أوقدت. قال : وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بنى آدم . وقوله : ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ قال

---

(١) فى المطبوعة : « جذامة » بالذال ، وهى خطأ .

(٢) المسند (٦/ ٤٣٤) ومسلم (١٤٤٢ / ١٤٠) ،وابن ماجه (٢٠١١) وأبو داود (٣٨٨٢) والترمذى (٢٠٧٧) والنسائى (٦/ ١٠٦).

(٣) فى المطبوعة والمخطوطة : « خنساء » والمثبت من المسند .

(٤) المسند (٥/ ٥٨) والحديث رواه أبو داود (٢٥٢١) ، وصححه الألبانى .

الضحاك، وأبو مالك ، وقتادة ، والربيع بن خُثَيم أى: قربت إلى أهلها . وقوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ : هذا هو الجواب ، أى : إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣] .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

روى مسلم ، والنسائى عن عمرو بن حُرَيث قال : صليت خلف النبى ﷺ الصبح ، فسمعته يقرأ : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (١) . وعن على: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ قال : هى النجوم تخنس بالنهار ، وتظهر بالليل . وكذا رُوى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والسّدى ، وغيرهم : أنها النجوم . وقال بعض الأئمة : إنما قيل للنجوم : « الخنس »، أى : فى حال طلوعها، ثم هى جوار فى فلكها ، وفى حال غيبوبتها يقال لها: « كُنَّس » من قول العرب: أوى الظبى إلى كنَاسة: إذا تغيب فيه. وقال عبد الله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ قال: بقر الوحش . وكذا قال سعيد بن جبير . وقال العوفى، عن ابن عباس : هى الظباء . وكذا قال سعيد أيضا ، ومجاهد ، والضحاك . وتوقف ابن جرير فى قوله : ﴿ الْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ ، هل هو النجوم ، أو الظباء وبقر الوحش ؟ قال : ويحتمل أن يكون الجميع مرادا .

وقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ فيه قولان :أحدهما : إقباله بظلامه . قال مجاهد : أظلم. وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ . وقال الحسن البصرى : إذا غَشى الناس .وقال ابن عباس : ﴿ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ : إذا أدبر . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وكذا قال زيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : ﴿ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ أى : إذا ذهب فتولى . وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ : إذا أدبر . قال لقوله : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أى : أضاء . وعندى أن المراد بقوله: ﴿ عَسْعَسَ ﴾: إذا أقبل ، وإن كان يصح استعماله فى الإدبار، لكن الإقبال هاهنا أنسب ؛ كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل ، وبالفجر وضيائه إذا أشرق ، كما قال :

(١) مسلم (٤٥٦/ ١٦٤) والنسائى فى الكبرى (١١٦٥١) .

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل:١ ، ٢] ، وقال : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى: ١ ، ٢] ، وقال: ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً ﴾ [الأنعام:٩٦] ، وغير ذلك من الآيات . وقال كثير من علماء الأصول : إن لفظة « عسعس » تستعمل فى الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك ، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ قال الضحاك : إذا طلع . وقال قتادة : إذا أضاء وأقبل . وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ . وهو المروى عن على .وقال ابن جرير : يعنى : وَضَوءُ النهار إذا أقبل وتَبَيَّن . وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعنى : إن هذا القرآن لتبليغُ رسول كريم ، أى : ملك شريف حَسَن الخلق ، بهى المنظر ، وهو جبريل ، عليه الصلاة والسلام . قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم . ﴿ ذِى قُوَّةٍ ﴾ كقوله : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ [فَاسْتَوَىٰ]﴾ [النجم:٥ ، ٦] ، أى : شديد الخَلْق ، شديد البطش والفعل ، ﴿ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ أى : له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة رفيعة . قال أبو صالح فى قوله : ﴿ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ قال : جبريل يدخل فى سبعين حجاباً من نور بغير إذن ، ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴾ أى : له وجاهة، وهو مسموع القول مطاع فى الملأ الأعلى. قال قتادة: ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴾ أى : فى السموات ، يعنى : ليس هو من أفناء الملائكة ، بل هو من السادة والأشراف، مُعتَنى به ، انتخب لهذه الرسالة العظيمة . وقوله :﴿ أَمِينٍ ﴾ : صفة لجبريل بالأمانة ، وهذا عظيم جدا أن الرب عز وجل يزكى عبده ورسوله الملكى جبريل كما زكى عبده ورسوله البشرى محمداً ﷺ بقوله:﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ . قال الشعبى ، وميمون بن مهران ، وأبو صالح ، ومن تقدم ذكرهم : المراد بقوله :﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ يعنى : محمداً ﷺ .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ يعنى: ولقد رأى محمدٌ جبريل الذى يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التى خلقه الله عليها له ستمائة جناح ﴿ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ أى : البين ، وهى الرؤية الأولى التى كانت بالبطحاء ، وهى المذكورة فى قوله : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم:٥ ــ ١٠] ، كما تقدم تفسيرُ ذلك وتقريره والدليلُ أن المرادَ بذلك جبريل ، عليه السلام . والظاهر ـ والله أعلم ـ أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء ؛ لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهى الأولى، وأما الثانية وهى المذكورة فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ . عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [النجم:١٣ ــ ١٦]،فتلك إنما ذكرت فى سورة « النجم»، وقد نزلت بعد سورة الإسراء .

وقوله : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أى : وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين ، أى : بمتهم . ومنهم من قرأ ذلك بالضاد ، أى : ببخيل ، بل يبذله لكل أحد . قال سفيان بن عُيينة : ظنين وضنين سواء ، أى : ما هو بكاذب ، وما هو بفاجر . والظنين : المتهم ، والضنين : البخيل . وقال قتادة : كان القرآن غيبا ، فأنزله الله على محمد ، فما ضَنّ به على

الناس ، بل بَلَّغه ونشره وبذله لكل من أراده . وكذا قال عكرمة ، وابن زيد،وغير واحد. واختار ابنُ جرير قراءة الضاد .قلت: وكلاهما متواتر ، ومعناه صحيح كما تقدم .

وقوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ أى : وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم ، أى : لا يقدر على حمله ، ولا يريده، ولا ينبغى له . كما قال : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢] . وقوله :﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ ؟ أى: فأين تذهب عقولكم فى تكذيبكم بهذا القرآن ، مع ظهوره ووضوحه ، وبيان كونه حقا من عند الله عز وجل ، كما قال الصديق لوفد بنى حنيفة حين قدموا مسلمين ، وأمرهم فتلوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الذى هو فى غاية الهذيان والركاكة، فقال: ويحكم، أين يُذهَب بعقولكم ؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إلٍّ ، أى : من إله .وقال قتادة : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أى : عن كتاب الله وعن طاعته . وقوله :﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أى : هذا القرآن ذكر لجميع الناس ، يتذكرون به ويتعظون ، ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ أى : من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن ، فإنه منجاةٌ له وهداية ، ولا هداية فيما سواه ، ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : ليست المشيئة موكولة إليكم ، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل ، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين .

تفسير سورة الانفطار

وهى مكية

روى النسائى عن جابر قال : قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطوّل ، فقال النبى ﷺ : «أفتان يا معاذ ؟! أين كنت عن سبح اسم ربك الأعلى، والضحى، وإذا السماء انفطرت ؟! ». وأصل الحديث مخرج فى الصحيحين (١) ، ولكن ذكرُ ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَت ﴾ من أفراد النسائى. وتقدم من رواية عبد الله بن عمر ، عن النبى ﷺ قال : « من سرَّه أن يَنظُرَ إلى القيامة رأى عين فليقرأ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَت ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّت ﴾ » (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربع ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ أى : انشقت ، كما قال : ﴿ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل: ١٨] . ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ أى : تساقطت. ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ قال ابن عباس: فجر الله بعضها فى بعض. وقال الحسن: فجر الله بعضها فى بعض ، فذهب ماؤها . وقال قتادة: اختلط مالحها بعذبها. ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ قال ابن عباس : بُحِثَت. وقال السدى: تُبعثر: تُحرّك فيخرج من فيها . ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ أى : إذا كان هذا حَصَل هذا .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ : هذا تهديد ، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب ؛ حيث قال : ﴿ الْكَرِيمِ ﴾ ، حتى يقول قائلهم : غره كرمه . بل المعنى فى هذه الآية : ما غرك يا بن آدم بربك الكريم ـ أى : العظيم ـ حتى أقدمت على معصيته ، وقابلته بما لا يليق ؟ كما جاء فى الحديث : « يقول الله يوم القيامة : ابن آدم ، ما غرك بى ؟ ابن آدم ، ماذا أجبتَ المرسلين ؟ ». عن ابن عمر ـ وقرأ هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ قال : غره ـ والله ـ جهله . ورُوى عن ابن عباس ، والحسن مثلُ ذلك . وقال قتادة: ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ : شىءٌ ما غرّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان . وقال

(١) النسائى فى الكبرى (١١٦٥٢) والبخارى (٧٠٠ ، ٧١١) ومسلم (٤٦٥ / ١٧٨) .
(٢) مضى تخريجه فى أول سورة التكوير .

الفضيل بن عياض : لو قال لى: « ما غرك بى »، لقلت : ستُورك المُرخاة . وقال أبو بكر الوراق : لو قال لى: ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ لقلت : غرنى كرم الكريم.

وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أى: ما غرك بالرب الكريم ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ أى: جعلك سَوِيًا معتدل القامة منتصبها ، فى أحسن الهيئات والأشكال . روى الإمام أحمد عن بُسْر (١) بن جحَّاش القرشى: أن رسول الله ﷺ بصق يوما فى كفه ، فوضع عليها إصبعه، ثم قال : « قال الله عز وجل : ابن آدم ، أنَّى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سَوَّيتك وعدلتك ، مشيت بين بردين وللأرض منك وَئِيدٌ ، فجَمَعت ومَنعت ، حتى إذا بلغت التراقى قلتَ : أتصدقُ ، وأنَّى أوانُ الصدقة » .وكذا رواه ابن ماجه (٢).

وقوله: ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾: قال مجاهد : فى أى شَبَه أب أو أم أو خال أو عم ؟ وفى الصحيحين عن أبى هُرَيرة أن رَجُلاً قال: يا رسول الله ، إن امرأتى وَلَدت غُلاماً أسودَ ؟. قال : «هل لك من إبل ؟ » . قال : نعم . قال : « فما ألونها ؟ » قال : حُمر. قال: « فهل فيها من أورَق ؟ » قال: نعم. قال : « فأنى أتاها ذلك ؟ » قال : عسى أن يكون نَزَعة عرْق . قال : «وهذا عسى أن يكون نزعة عرق » (٣) . وقد قال عكرمة فى قوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ : إن شاء فى صورة قرد ، وإن شاء فى صورة خنزير . وكذا قال أبو صالح : إن شاء فى صورة كلب ، وإن شاء فى صورة حمار ، وإن شاء فى صورة خنزير .قال قتادة : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾، قال : قادر ـ والله ـ ربنا على ذلك.ومعنى هذا القول عند هؤلاء: أن الله، عز وجل، قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام ،حَسَن المنظر والهيئة. وقوله تعالى : ﴿كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ أى : بل إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصى، تكذيب فى قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ يعنى : وإن عليكم لملائكةً حَفَظَة كراما فلا تقابلوهم بالقبائح ، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

---

(١) فى المطبوعة والمخطوطة : « بشر » والمثبت كما فى المسند وابن ماجه . وكلاهما صحيح. انظر المغنى فى ضبط أسماء الرجال لمحمد طاهر الهندى (ص ٣٨ ط . دار الكتاب العربى) .

(٢) المسند (٤/ ٢١٠) وابن ماجه (٢٧٠٧) وفى زوائد البوصيرى : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » .

(٣) البخارى (٥٣٠٥) ومسلم (١٥٠٠ / ١٨) .

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم ، وهم الذين أطاعوا الله عز وجل ،ولم يقابلوه بالمعاصى. ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم؛ولهذا قال: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى: يوم الحساب والجزاء والقيامة ، ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ أى : لا يغيبون عن العذاب ساعةً واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ، ولو يوما واحدا .

وقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة ، ثم أكده بقوله: ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ ، ثم فسره بقوله :﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ أى: لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خَلاصه مما هو فيه ، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . ونذكر هاهنا حديث: « يا بنى هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار ، لا أملك لكم من الله شيئا » (١) . ولهذا قال : ﴿ وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ ، كقوله: ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، وكقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ [الفرقان:٢٦] ، وكقوله: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة:٤] . قال قتادة : ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ ، والأمر ـ والله ـ اليوم لله ، ولكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد .

(١) مسلم (٢٠٤ / ٣٤٨) .

تفسير سورة المطففين

وهى مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) ﴾

روى النسائى وابن ماجه عن ابن عباس قال : لما قدم نبى الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ، فحسَّنوا الكيلَ بعد ذلك (١) . فالمراد بالتطفيف هاهنا : البَخْس فى المكيال والميزان ، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس ، وإما بالنقصان إن قَضَاهم. ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخَسَار والهَلاَك وهو الويل، بقوله: ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ أى: من الناس ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أى : يأخذون حقهم بالوافى والزائد، ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ أى : ينقصون .والأحسن أن يجعل « كالوا » و«وزنوا» متعديا، ويكون هم فى محل نصب ، ومنهم من يجعلها ضميرا مؤكدا للمستتر فى قوله : « كالوا » و«وزنوا »، ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه ، وكلاهما متقارب .

وقد أمر الله ـ تعالى ـ بالوفاء فى الكيل والميزان ، فقال: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [الإسراء: ٣٥] ، وقال : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقال: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٩] . وأهلك الله قوم شعيب ودَمَّرهم على ما كانوا يبخسون الناس فى المكيال والميزان . ثم قال تعالى متوعدا لهم : ﴿ أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ؟ أى : أما يخافُ أولئك من البعث والقيام بين يَدَى من يعلم السرائر والضمائر ، فى يوم عظيم الهول ، كثير الفزع ، جليل الخطب ، من خسر فيه أدخل نارا حامية ؟

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : يقومون حفاة عراة غُرلاً ، فى موقف صعب حَرِج ضيق ضَنك على المجرم ، ويغشاهم من أمر الله ما تَعْجزُ القوى والحواس عنه. عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال:« ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » . رواه البخارى ومسلم (٢).

---

(١) النسائى فى الكبرى (١١٦٥٤) وابن ماجه (٢٢٢٣) ،وصححه الألبانى .

(٢) البخارى (٢٨٦٢ ، ٦٥٣١) ومسلم (٢٨٦٢/ ٦٠)

ولفظ الإمام أحمد عن ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ : لعظَمة الرحمن عز وجل يوم القيامة ، حتى إن العرقَ ليُلجِمُ الرجالَ إلى أنصاف آذانهم » (١) .

وروى الإمام أحمد : عن المقداد ـ يعنى ابن الأسود الكندى ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا كان يومُ القيامة أدنيَت الشمس من العباد ، حتى تكون قيدَ ميل أو ميلين ، قال : فتصهرهم الشمس ، فيكونون فى العَرق كقَدْر أعمالهم ، منهم من يأخذه إلى عَقِبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ،ومنهم من يأخذه إلى حَقْوَيه ، ومنهم من يلجمه إلجاما ». رواه مسلم والترمذى (٢) . روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عَقِبيه ، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه ، ومنهم من يبلغ العَجُز ، ومنهم من يبلغ الخاصرة ، ومنهم من يبلغ منكبيه ، ومنهم من يبلغ وسط فيه ـ وأشار بيده فألجمها فاه ، رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا ـ ومنهم من يغطيه عرقه». وضرب بيده إشارة . انفرد به أحمد (٣).

وفى حديث : أنهم يقومون سبعين سنة لا يتكلمون . وقيل : يقومون ثلاثمائة سنة . وقيل : يقومون أربعين ألف سنة . ويقضى بينهم فى مقدار عشرة آلاف سنة ، كما فى صحيح مسلم عن أبى هُرَيرة مرفوعا: «فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (٤) . وفى سنن أبى داود والنسائى وابن ماجه عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل : يكبر عشرا ، ويحمد عشرا ، ويسبح عشرا ، ويستغفر عشرا ، ويقول : « اللهم اغفر لى واهدنى ، وارزقنى وعافنى » . ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة (٥) .

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى: حقا ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّين ﴾ أى : إن مصيرهم ومأواهم لفى سجين ـ

---

(١) المسند (٤٨٦٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) المسند (٣١٦) ومسلم (٢٨٦٤ / ٦٢) والترمذى (٢٤٢١) .

(٣) المسند (١٥٧/٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٣٨/١٠) : « رواه أحمد والطبرانى وإسناد الطبرانى جيد » .

(٤) مسلم (٩٨٧ / ٢٤) .

(٥) أبو داود (٧٦٦) والنسائى (١٦١٧) وابن ماجه (١٣٥٦) وصححه الألبانى .

فعيل من السَّجن ، وهو الضيق ـ كما يقال : فسّيق وشرّيب وخمّير وسكّير ، ونحو ذلك .
ولهذا عظم أمره فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ؟ أى : هو أمر عظيم ، وسجن مقيم وعذاب أليم . والصحيح أن «سجينا» مأخوذ من السَّجن ، وهو الضيق ، فإذا المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق ، وكل ما تعالى منها اتسع ، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذى دونه ، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التى دونها ،حتى ينتهى السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز فى وسط الأرض السابعة . ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهى أسفل السافلين، كما قال تعالى :﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ [التين:٥] قال هاهنا :﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ، وهو يجمع الضيق والسفول ، كما قال : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان:١٣] .

وقوله :﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ ليس تفسيرا لقوله: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ، وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين ، أى : مرقوم مكتوب مفروغ منه ، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد ؛ قاله محمد بن كعب القرظى. ثم قال:﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى: إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السَّجن والعذاب المهين. وقد تقدم الكلام على قوله: ﴿ وَيْلٌ ﴾ بما أغنى عن إعادته ، وأن المراد من ذلك الهلاك والدمار ، كما يقال : ويل لفلان .وكما جاء فى المسند والسنن من رواية بَهْز بن حكيم بن معاوية بن حَيْدة ، عن أبيه ، عن جده قال :قال رسول الله ﷺ : « ويل للذى يُحَدِّث فيكذب ، ليضحكَ الناس ، ويل له ، ويل له » (١) .
ثم قال تعالى مفسرا للمكذبين الفجار الكفرة : ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أى: لا يصدقون بوقوعه، ولا يعتقدون كونه، ويستبعدون أمره . قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أى : معتد فى أفعاله ؛ من تعاطى الحرام والمجاوزة فى تناول المباح ، والأثيم فى أقواله : إن حدث كذب ، وإن وعد أخلف ، وإن خاصم فجر .

وقوله : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ أى : إذا سمع كلام الله من الرسول يكذب به ، ويظن به ظن السوء ، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين ﴾ [النحل:٢٤] ، وقال :﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان:٥] ، قال الله تعالى:﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى: ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، إن هذا القرآن أساطير الأولين ، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرَّين الذى قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾. والرين يعترى قلوبَ الكافرين ، والغيم للأبرار ، والغين للمقربين . وقد روى ابن جرير والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب منها صُقِل قلبه ، وإن زاد زادت ، فذلك قول الله :

(١) المسند (٥/ ٥ ، ٧) وأبو داود (٤٩٩٠) والترمذى (٢٣١٥) ، وصححه الألبانى .

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » . وقال الترمذى : حسن صحيح . ولفظ النسائى : «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكت فى قلبه نكتة، فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه، فهو الران الذى قال الله: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ » (١).

وروى أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه ، فإن زاد زادت حتى يعلو قلبه ، وذاك الران الذى ذكر الله فى القرآن : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » (٢) . وقال الحسن البصرى : هو الذنب على الذنب ، حتى يعمى القلب ، فيموت . وكذا قال مجاهد وقتادة ، وابن زيد ، وغيرهم .

وقوله : ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أى : لهم يوم القيامة مَنْزلٌ ونزل سجين ، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم .قال الإمام الشافعى : فى هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ. وهذا الذى قاله الإمام الشافعى ، رحمه الله، فى غاية الحسن ، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢،٢٣] . وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة فى رؤية المؤمنين ربهم عز وجل فى الدار الآخرة ، رؤية بالأبصار فى عَرَصات القيامة ، وفى روضات الجنات الفاخرة . قوله :﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴾ أى: ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران ، ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ ،والتصغير والتحقير.

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢٨) ﴾

يقول تعالى : حقا ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ ﴾ وهم بخلاف الفجار ، ﴿ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ أى : مصيرهم إلى عليين ، وهو بخلاف سجين. قال غير واحد : إنها السماء السابعة . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ يعنى : الجنة . وفى رواية عنه : أعمالهم فى السماء عند الله . وكذا قال الضحاك. وقال قتادة : عليون: ساق العرش اليمنى. وقال غيره: عليون عند سدرة المنتهى. والظاهر : أن عليين مأخوذ من العلو ، وكلما علا الشىء وارتفع عظم

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٣٠/ ٦٢ ، ٦٣) والترمذى (٣٣١٥) والنسائى (١١٦٥٨ / ١) وابن ماجه (٤٢٤٤) وصححه الألبانى .

(٢) المسند (٧٩٣٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

واتسع ؛ ولهذا قال معظما أمره ومفخما شأنه : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ .

ثم قال مؤكدا لما كتب لهم : ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ. يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، وهم الملائكة ، قاله قتادة. وقال العوفى ، عن ابن عباس : يشهده من كل سماء مقربوها .ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أى : يوم القيامة هم فى نعيم مقيم ، وجنات فيها فضل عميم، ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ ﴾ وهى : السرر تحت الحجَال، ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ قيل : معناه : ينظرون فى مُلكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذى لا ينقضى ولا يبيد . وقيل: معناه : ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ إلى الله عز وجل . وهذا مقابلة لما وُصف به أولئك الفجار : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ ، فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله عز وجل وهم على سررهم وفرشهم.

وقوله : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ أى : تعرف إذا نظرت إليهم فى وجوههم نضرة النعيم، أى : صفة الترافة والحشمة والسرور والدّعة والرياسة ؛ مما هم فيه من النعيم العظيم. وقوله: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ أى :يسقون من خمر من الجنة. والرحيق: من أسماء الخمر. قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ،والحسن ، وقتادة ، وابن زيد .وقال ابن مسعود فى قوله : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أى : خلطه مسك . وقال ابن عباس : طيب الله لهم الخمر ، فكان آخر شىء جعل فيها مسك ، ختِم بمسك . وكذا قال قتادة والضحاك .وقال إبراهيم والحسن : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أى : عاقبته مسك . وقال مجاهد : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ قال : طيبه مسك . وقوله: ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ أى : وفى مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون ، وليتباهى ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون، كقوله: ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات:٦١] . وقوله : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ أى : ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم ، أى : من شراب يقال له تسنيم ، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه . قاله أبو صالح والضحاك؛ ولهذا قال : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أى: يشربها المقربون صِرْفاً، وتُمزَجُ لأصحاب اليمين مَزجاً . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق، وقتادة ، وغيرهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا فى الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين ، أى : يستهزئون بهم ويحتقرونهم ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم ، أى : محتقرين لهم ، ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَاكِهِينَ (١) ﴾ أى: إذا انقلب، أى : رجع هؤلاء المجرمون إلى

(١) « فاكهين » : قراءة الجمهور ، وكذا قراءة الحافظ ابن كثير .

منازلهم ، انقلبوا إليها فاكهين ، أى : مهما طلبوا وجدوا ، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم ، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم، ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ أى : لكونهم على غير دينهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ أى: وما بُعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر من أعمالهم وأقوالهم ، ولا كلفوا بهم ؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم ، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠٨ـ١١١] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ يعنى : يوم القيامة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ أى : فى مقابلة ما ضحك بهم أولئك ، ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ أى : إلى الله عز وجل ، فى مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ،ليسوا بضالين ، بل هم من أولياء الله المقربين ، ينظرون إلى ربهم فى دار كرامته. وقوله: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ؟ أى: هل جوزى الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا ؟ يعنى : قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

تفسير سورة الانشقاق
وهى مكية

عن أبى هريرة أنه قرأ بهم : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ، فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها . رواه مسلم والنسائى [(١)] . وروى البخارى عن أبى رافع قال : صليت مع أبى هُرَيرة العتمة فقرأ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ، فسجد ،فقلت له ، فقال : سجدتُ خلف أبى القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه. وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائى[(٢)].

وقد روى مسلم وأهل السنن عن أبى هريرة قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ فى ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ و ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [(٣)] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) ربع
وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ
كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا
(٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو
ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ
(١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ وذلك يوم القيامة ، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أى : استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أى : وحق لها أن تطيع أمره؛ لأنه العظيم الذى لا يُمانَع ولا يغالب ،بل قد قهر كل شىء وذل له كلّ شىء . ثم قال : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أى : بُسطت وفرشت ووُسِّعَت . روى ابن جرير عن على بن الحسين : أن النبى ﷺ قال: «إذا كان يومُ القيامة مَدَّ الله الأرض مَدَّ الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه، فأكون أول من يدعى، وجبريل عن يمين الرحمن، والله ما رآه قبلها ، فأقول : يا رب، إن هذا أخبرنى أنك أرسلته إلىَّ؟ فيقول الله عز وجل: صدق. ثم أشفع فأقول: يا رب،

(١) مسلم (٥٧٨ / ١٠٧) والنسائى فى الكبرى (١١٦٦٠) .
(٢) البخارى (٧٦٦ ، ٧٦٨) ومسلم (٥٧٨ / ١٠٧) وأبو داود (١٤٠٨) والنسائى (٩٦٢) .
(٣) مسلم (٥٧٨ / ١٠٨) وأبو داود (١٤٠٧) والترمذى (٥٧٣) .

عبادك عبدوك فى أطراف الأرض . قال : وهو المقام المحمود » (١) .

وقوله : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أى : ألقت ما فى بطنها من الأموات ، وتخلت منهم . قاله مجاهد ، وسعيد ، وقتادة ، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ كما تقدم .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ أى : ساع إلى ربك سعيا ، وعامل عملا ، ﴿ فَمُلاقِيهِ ﴾ ، ثم إنك ستلقى ما عملتَ من خير أو شر . ويشهد له ما رواه أبو داود الطيالسى ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قال جبريل : يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه،واعمل ما شئت فإنك ملاقيه » (٢) . ومن الناس من يعيد الضمير على قوله: ﴿ رَبِّكَ ﴾ أى : فملاق ربك ، ومعناه : فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك . وعلى هذا فكلا القولين متلازم . قال ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ يقول : تعمل عملا تلقى الله به ، خيرا كان أو شرا . وقال قتادة : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ : إن كدحك ـ يا ابن آدم ـ لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه فى طاعة الله فليفعل ، ولا قوة إلا بالله . ثم قال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أى : سهلا بلا تعسير ، أى: لا يحقق عليه جَميعُ دقائق أعماله؛ فإن من حوسب كذلك يهلك لا محالة . روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «من نُوقش الحساب عُذِّب ». قالت: فقلت: أليس قال الله : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ؟، قال : « ليس ذاك بالحساب ، ولكن ذلك العَرْض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب » . وهكذا رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير (٣). وروى ابن جرير عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنه ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا معذبا » . فقلت : أليس الله يقول : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ؟ ، قال : « ذاك العرض ، إنه من نُوقِش الحساب عُذب » ، وقال بيده على إصبعه كأنه يَنكُتُ . أخرجاه (٤) . وروى أحمد عن عائشة قالت : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول فى بعض صلاته : « اللهم حاسبنى حسابا يسيرا » . فلما انصرف قلت : يا رسول الله ، ما الحساب اليسير ؟ قال : « أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه ، إنه من نُوقِش الحسابَ يا عائشةُ يومئذ هَلَكَ » . صحيح على شرط مسلم (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أى : ويرجع إلى أهله فى الجنة . قاله قتادة ،

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٧٢) . ورواه الحاكم فى المستدرك (٥ / ٥٧٠) عن جابر بنحوه، ثم قال : « صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

(٢) الطيالسى فى المسند (١٧٥٥) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٢ / ٢٥٥ ، ٢٥٦) : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه زاخر بن سليمان وثقه أحمد وابن معين وأبو داود وتكلم فيه ابن عدى وابن حبان بما لا يضر » .

(٣) المسند (٦/ ٤٧) والبخارى (٤٩٣٩) ومسلم (٢٨٧٦ / ٧٩) والترمذى (٣٣٣٧) وابن جرير فى التفسير (٣٠/ ٧٤).

(٤) ابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٧٤) والبخارى ومسلم السابقان .

(٥) المسند (٦ / ٤٨) .

والضحاك ، ﴿ مَسْرُورًا ﴾ أي : فرحان مغتبطا بما أعطاه الله عز وجل . وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ أي : بشماله من وراء ظهره ، تُثنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك ، ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾ أي: خسارا وهلاكا ، ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا . إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أي: فرحا لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه ، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل ، ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته . قاله ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما . والحَوْرُ : هو الرجوع . قال الله : ﴿ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ يعني : بلى سيعيده الله كما بدأه ، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها ، فإنه ﴿ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ أي : عليما خبيرا .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ سجدة
بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

رُوي عن علي، وابن عباس،وعُبادة بن الصامت ، وأبي هُرَيرة ، وشداد بن أوس ، وابن عمر ، وغيرهم أنهم قالوا : الشفق : الحمرة . فالشفق هو : حمرة الأفق إما قبل طلوع الشمس ـ كما قاله مجاهد ـ وإما بعد غروبها ـ كما هو معروف عند أهل اللغة .قال الخليل بن أحمد : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة، فإذا ذهب قيل: غاب الشفق . وقال الجوهري : الشفق: بقية ضوء الشمس وحمرتُها في أول الليل إلى قريب من العَتَمَة . وكذا قال عكرمة : الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء. وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « وقت المغرب ما لم يغب الشفق » (١) .

ففي هذا كله دليل على أن الشفق هو كما قاله الجوهري والخليل . ولكن صح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾: هو النهار كله. وفي رواية عنه أيضا أنه قال : الشفق : الشمس . رواهما ابن أبي حاتم . وإنما حمله على هذا قَرْنُهُ بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أي:جمع.كأنه أقسم بالضياء والظلام . وقال ابن جرير : أقسم الله بالنهار مدبراً ، وبالليل مقبلا . قال ابن جرير : وقال آخرون : الشفق اسم للحمرة والبياض . وقالوا : هو من الأضداد. قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ،وقتادة : ﴿ وَمَا وَسَقَ ﴾ : وما جمع . قال قتادة : وما جمع من نجم ودابة .واستشهد ابن عباس بقول الشاعر :

مُستَوسقات لو تَجِدْنَ سَائقا

(١) مسلم (٦١٢ / ١٧٣) .

قد قال عكرمة : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ يقول : ما ساق من ظلمة ، إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه .

وقوله : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ قال ابن عباس : إذا اجتمع واستوى . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومسروق ، وأبو صالح ،والضحاك ،وابن زيد : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾: إذا استوى . وقال الحسن : إذا اجتمع ،إذا امتلأ . وقال قتادة : إذا استدار . ومعنى كلامهم : أنه إذا تكامل نوره وأبدر ، جعله مقابلا لليل وما وسق . وقوله : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ روى البخارى عن ابن عباس : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ : حالا بعد حال ، قال هذا نبيكم ﷺ . هكذا رواه البخارى بهذا اللفظ [١] ، وهو محتمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبى ﷺ ، كأنه قال:سمعت هذا من نبيكم ﷺ، فيكون قوله : « نبيكم » مرفوعا على الفاعلية من « قال » وهو الأظهر، والله أعلم ، كما قال أنس: لا يأتى عام إلا والذى بعده شرٌّ منه ، سمعته من نبيكم ﷺ . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ : حالا بعد حال . وكذا قال عكرمة ومُرَة الطَّيِّب ، ومجاهد ، والحسن، والضحاك .

ويحتمل أن يكون المراد : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ : حالا بعد حال . قال : هذا ، يعنى المراد بهذا نبيكم ﷺ ، فيكون مرفوعا على أن « هذا » و « نبيكم » يكونان مبتدأ وخبرا ، والله أعلم . ولعل هذا قد يكون هو المتبادر إلى كثير من الرواة ،كما قال أبو داود الطيالسى وغُنْدَر : حدثنا شعبة، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال : محمد ﷺ . ويؤيد هذا المعنى قراءةُ عمر ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وعامة أهل مكة والكوفة : « لَتَرْكَبَنّ» بفتح التاء والباء . روى ابن أبى حاتم عن الشعبى: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال : لتركَبن يا محمد سماء بعد سماء. وهكذا رُوى عن ابن مسعود، ومسروق، وأبى العالية : ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ : سماء بعد سماء . قلت : يعنون ليلة الإسراء .

وقال السدى نفسُه : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ : أعمال من قبلكم منزلا بعد منزل . قلت : كأنه أراد معنى الحديث الصحيح : « لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم، حَذْو القُذَّة بالقُذَّة ، حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لدخلتموه ». قالوا: يا رسول الله،اليهود والنصارى؟ قال: « فمن؟ » [٢] . وهذا محتمل . وقال عبد الله [بن مسعود] : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال : السماء تنشق ثم تحمر ، ثم تكون لونا بعد لون . وقال سعيد بن جبير : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال : قوم كانوا فى الدنيا خسيس أمرهم ، فارتفعوا فى الآخرة ، وآخرون كانوا أشرافا فى الدنيا ،فاتضعوا فى الآخرة . وقال عكرمة :﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾:حالا بعد حال ، فطيماً بعد ما كان رضيعاً ، وشيخاً بعد ما كان شاباً . وقال الحسن البصرى: ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ يقول : حالا بعد حال ، رخاء بعد شدة ، وشدة بعد رخاء ، وغنى بعد فقر ، وفقرا بعد غنى، وصحة بعد سقم ، وسَقَما بعد صحة .

---

(١) البخارى (٤٩٤٠) .

(٢) مضى تخريجه عند الآية (٣٤) من سورة التوبة .

ثم قال ابن جرير بعد ما حكى أقوال الناس فى هذه الآية من القراء والمفسرين : والصواب من التأويل قول من قال لَتَرْكَبَنّ أنت ـ يا محمد ـ حالا بعد حال وأمراً بعد أمر من الشّدَائد. والمراد بذلك ـ وإن كان الخطاب إلى رسول الله ﷺ مُوَجَّها ـ جَميعَ الناس ، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالاً .

وقوله : ﴿ فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ ﴾ أى : فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ؟ وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الرحمن وكلامه ـ وهو هذا القرآن ـ لا يسجدون إعظاما وإكراماً واحتراما ؟ وقوله : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ أى : من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : يكتمون فى صدورهم ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى: فأخبرهم ـ يا محمد ـ بأن الله عز وجل قد أعد لهم عذابا أليما .

وقوله: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ : هذا استثناء منقطع ، يعنى: لكن الذين آمنوا، أى : بقلوبهم ،وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ أى: فى الدار الآخرة ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال ابن عباس: غير منقوص . وقال مجاهد ، والضحاك : غير محسوب . وحاصل قولهما أنه غير مقطوع، كما قال تعالى : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٨] . وقال السدى : قال بعضهم : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ : غير منقوص . وقال بعضهم : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ عليهم . هذا القول الآخر عن بعضهم قد أنكره غير واحد؛ فإن الله عز وجل له المنة على أهل الجنة فى كل حال وآن ولحظة، وإنما دخلوها بفضله ورحمته لا بأعمالهم، فله عليهم المنة دائما سرمداً، والحمد لله وحده أبدا ؛ ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النَّفَس : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠]

تفسير سورة البروج
وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) ﴾

يقسم تعالى بالسماء وبروجها ، وهى : النجوم العظام ، كما تقدم بيان ذلك فى قوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١] . قال ابن عباس، ومجاهد ، وقتادة: البروج: النجوم. وعن مجاهد أيضا: البروج التى فيها الحرس . وقال يحيى ابن رافع: البروج : قصور فى السماء . وقال المنهال بن عمرو : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ : الخلق الحسن . واختار ابن جرير أنها: منازل الشمس والقمر ، وهى اثنا عشر برجا ، تسير الشمس فى كل واحد منها شهراً ، ويسير القمر فى كل واحد يومين وثلثا ، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً ، ويستسر ليلتين .

وقوله: ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ. وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ :اختلف المفسرون فى ذلك . وروى أحمد عن أبى هريرة أنه قال فى هذه الآية : ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ قال : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة [(١)]. وقد رُوى عن أبى هريرة أنه قال: اليوم الموعود يوم القيامة . وكذلك قال الحسن ، وقتادة، وابن زيد . ولم أرهم يختلفون فى ذلك ، ولله الحمد . وقال مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك : الشاهد : ابن آدم ، والمشهود : يوم القيامة . وعن عكرمة أيضا : الشاهد : محمد ﷺ ، والمشهود : يوم الجمعة . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس: الشاهد : الله ، والمشهود : يوم القيامة. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال: الشاهد : الإنسان . والمشهود : يوم الجمعة.

وروى ابن جرير عن ابن عباس: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ الشاهد: يوم عرفة ، والمشهود : يوم القيامة . وبه عن سفيان ـ هو الثورى ـ عن مغيرة، عن إبراهيم قال : يوم الذبح ، ويوم عرفة،

---

(١) المسند (٢/ ٢٩٨، ٢٩٩) .

يعنى الشاهد والمشهود. وعن سعيد بن جبير: الشاهد : الله، وتلا ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٩] ، والمشهود : نحن . حكاه البغوى ، وقال : الأكثرون على أن الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة .

وقوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ أى : لعن أصحاب الأخدود ، وجمعه : أخاديد ، وهى الحفير فى الأرض ، وهذا خبر عن قوم من الكفار عَمَدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله ، عز وجل، فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم ، فأبوا عليهم ، فحفروا لهم فى الأرض أخدُوداً وأججوا فيه نار،وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به ، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم ، فقذفوهم فيها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أى: مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ أى : وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذى لا يضام من لاذ بجنابه ، المنيع الحميد فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، وإن كان قد قَدّر على عباده هؤلاء هذا الذى وقع بهم بأيدى الكفار به ، فهو العزيز الحميد ، وإن خفى سبب ذلك على كثير من الناس . ثم قال : ﴿ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : لا يغيب عنه شىء فى جميع السموات والأرض ، ولا تخفى عليه خافية .

وقد اختلف أهل التفسير فى أهل هذه القصة ، من هم . فعن على:أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم ، فامتنع عليه علماؤهم ، فعمد إلى حفر أخدود فقذف فيه من أنكر عليه منهم ، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم . وعنه : أنهم كانوا قوماً باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم ، فغلب مؤمنوهم على كفارهم ، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين ، فخدُّوا لهم الأخاديد ، وأحرقوهم فيها . وعنه: أنهم كانوا من أهل الحبشة ، ونبيهم حَبَشِىٌّ . وقال ابن عباس : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ قال : ناس من بنى إسرائيل ، خَدّوا أخدوداً فى الأرض ، ثم أوقدوا فيه نارا ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء، فعُرضوا عليها ، وزعموا أنه دانيال وأصحابه . وهكذا قال الضحاك بن مُزَاحم ، وقيل غير ذلك .

وقد روى الإمام أحمد عن صُهَيب : أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : إنى قد كبرت سِنِّى وحضر أجلى ، فادفع إلى غلاما أعلمه السحر . فدفع إليه غلاما فكان يعلمه السحر ، وكان بين الساحر وبين الملك راهب ، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه، فأعجبه نحوه وكلامه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال : ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا: ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل : حبسنى أهلى . وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل : حبسنى الساحر . قال : فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة ، قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر

الساحر . قال : فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس . ورماها فقتلها ، ومضى الناس . فأخبر الراهب بذلك فقال : أىْ بُنَى ، أنت أفضل منى ، وإنك ستُبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل على . فكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم ، وكان جليس للملك فعمى ، فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة فقال : اشفنى ولك ما ههنا أجمعُ . فقال: ما أنا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله، عز وجل ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك . فآمن فدعا الله فشفاه. ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك : يا فلان ، من ردّ عليك بصرك؟ فقال : ربى ؟ فقال: أنا ؟ قال : لا ، ربى وربك الله . قال : ولك رب غيرى ؟ قال : نعم ، ربى وربك الله . فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فبعث إليه فقال : أىْ بُنَى ، بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء ؟ قال: ما أشفى أنا أحداً ، إنما يشفى الله، عز وجل. قال: أنا ؟ قال : لا . قال : أولك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله . فأخذه أيضا بالعذاب ، فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتى بالراهب فقال : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه ،وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض. وقال للغلام : ارجع عن دينك ، فأبى ، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال : إذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فَدَهدهوه، فذهبوا به ، فلما علوا به الجبل قال : اللهم ، اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون. وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال: كفانيهم الله . فبعث به مع نفر فى قُرقُور فقال : إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرّقوه فى البحر . فلججوا به البحر فقال الغلام : اللهم ، اكفنيهم بما شئت . فغرقوا أجمعون ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . ثم قال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتنى ، وإلا فإنك لا تستطيع قتلى. قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ثم تصلبنى على جذع ، وتأخذ سهماً من كنانتى ثم قل : « بسم الله رب الغلام » ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى. ففعل ، ووضع السهم فى كبد قوسه ثم رماه ، وقال: « بسم الله رب الغلام». فوقع السهم فى صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس : آمنا برب الغلام. فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر ؟ فقد ـ والله ـ نزل بك ، قد آمن الناس كلهم. فأمر بأفواه السكك فَخُدّت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران ، وقال: من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها . قال : فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون ، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه ، فكأنها تقاعست أن تقع فى النار ، فقال الصبى : اصبرى يا أماه ، فإنك على الحق » وهكذا رواه مسلم والنسائى (١) .

وقد جوّده الإمام أبو عيسى الترمذى عن صُهَيب قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر

(١) المسند (٦ / ١٦) ومسلم (٣٠٠٥ / ٧٣) والنسائى فى الكبرى (١١٦٦١) .

هَمَس ـ والهَمس فى قول بعضهم : تحريك شفتيه كأنه يتكلم ـ فقيل له: إنك ـ يا رسول الله ـ إذا صليت العصر همست ؟ قال : « إن نبيا من الأنبياء ، كان أُعجِب بأمته فقال : من يقوم لهؤلاء ؟ . فأوحى الله إليه أن خيرهم بين أن أنتقم منهم ، وبين أن أسلط عليهم عدوهم . فاختاروا النقمة ، فسلّط عليهم الموت ، فمات منهم فى يوم سبعون ألفا » . قال : وكان إذا حدّث بهذا الحديث ، حدّث بهذا الحديث الآخر قال : كان مَلك من الملوك ، وكان لذلك الملك كاهن تكهن له، فقال الكاهن : انظروا لى غلاماً فَهِما ـ أو قال: فطناً لَقِناً ـ فأعلّمه علمى هذا . فذكر القصة بتمامها ،وقال فى آخره:« يقول الله عز وجل : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ » حتى بلغ : ﴿ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ . قال : فأما الغلام فإنه دفن قال : فيذكر أنه أخرج فى زمان عمر بن الخطاب ، وإصبعه على صُدغه كما وضعها حين قتل . ثم قال الترمذى : حسن غريب (١) . وهذا السياق ليس فيه صراحة أن سياق هذه القصة من كلام النبى ﷺ. قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المِزّى : فيحتمل أن يكون من كلام صُهَيب الرومى ، فإنه كان عنده علم من أخبار النصارى ، والله أعلم .

وقد أورد ابن إسحاق بن يَسَار هذه القصة فى السيرة بسياق آخر،فيها مخالفة لما تقدم فقال: حدثنى يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القُرَظى ـ وحدثنى أيضاً بعض أهل نجران ، عن أهلها : أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان ، وكان فى قرية من قراها قريباً من نجران ـ ونجران هى القرية العظمى التى إليها جمَاعُ أهل تلك البلاد ـ ساحرٌ يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزلها فَيمُون ـ ولم يسموه لى بالاسم الذى سماه ابن منبه، قالوا : رجل نزلها ـ ابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التى فيها الساحر ، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر ، فبعث الثامر ابنه عبد الله بن الثامر مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه ، حتى أسلم فوحد الله وعبده،وجعل يسأله عن شرائع الإسلام حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم، وكان يعلمه ، فكتمه إياه وقال له:يا ابن أخى، إنك لن تحمله؛ أخشى ضعفك عنه . والثامر أبو عبد الله لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان ، فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن به عنه ، وتخوف ضعفه فيه ، عمد إلى أقداح فجمعها ، ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه فى قدْح، وكل اسم فى قدح ، حتى إذا أحصاها أوقد ناراً ثم جعل يقذفها فيها قدْحا قدْحاً ، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بِقدْحه ، فوثب القدْح حتى خرج منها لم يضره شىء ، فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذى كتمه فقال : وما هو ؟ قال : هو كذا وكذا . قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع . قال : أى ابن أخى ، قد أصبته فأمسك على نفسك ، وما أظن أن تفعل .

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضر إلا قال : يا عبد الله ،

---

(١) الترمذى (٣٣٤٠) ، وصححه الألبانى .

أتوحدُ الله وتدخلُ فى دينى وأدعو الله لك فيعافيكَ مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم . فيوحد الله ويسلم، فيدعو الله له فيَشفَى ، حتى لم يبق بنجران أحد به ضر إلا أتاه ، فاتبعه على أمره ودعا له فعوفى ، حتى رُفع شأنه إلى ملك نجران ، فدعاه فقال له: أفسدت علىّ أهل قريتى، وخالفت دينى ودين آبائى ، لأُمثلنّ بك . قال: لا تقدر على ذلك . قال: فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل ، فيُطرح على رأسه ، فيقع إلى الأرض ما به بأس ، وجعل يبعث به إلى مياه نجران ، بُحور لا يلقى فيها شىء إلا هلك ، فيلقى به فيها ، فيخرج ليس به بأس . فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر: إنك ـ والله ـ لا تقدر على قتلى حتى تُوَحّدَ الله فتُؤمن بما آمنت به ، فإنك إن فعلت سُلّطتَ علىّ فقتلتنى. قال: فوحّدَ الله ذلك الملك ، وشهد شهادة عبد الله ابن الثامر ، ثم ضربه بعصا فى يده فشجه شجة غير كبيرة ، فقتله ، وهلك الملك مكانه . واستجمع أهلُ نجران على دين عبد الله بن الثامر ـ وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، من الإنجيل وحُكمه ـ ثم أصابهم ما أصاب أهلَ دينهم من الأحداث ، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران .

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب القرظى وبعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر، والله أعلم أىّ ذلك كان. قال : فسار إليهم ذو نواس بجنده ، فدعاهم إلى اليهودية ، وخيَّرهم بين ذلك أو القتل ، فاختاروا القتل ، فخدّ الأخدود ، فحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم ، حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفا، ففى ذى نواس وجنده أنزل الله ، عز وجل، على رسوله ﷺ: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

هكذا ذكر ابن إسحاق فى السيرة أن الذى قتل أصحاب الأخدود هو ذو نواس ، واسمه : زرعة ، ويسمّى فى زمان مملكته بيوسف ، وهو ابن تِبَان أسعد أبى كَرِب ، وهو تُبّع الذى غزا المدينة وكسى الكعبة ، واستصحب معه حبرين من يهود المدينة ، فكان تَهَوّد من تَهَوّد من أهل اليمن على يديهما ، كما ذكره ابن إسحاق مَبسوطاً ، فقتل ذو نواس فى غداة واحدة فى الأخدود عشرين ألفا ، ولم ينج منهم سوى رجل واحد يقال له : دوس ذو ثَعلبان ، ذهب فارسا ، وطَرَدُوا وراءه فلم يُقدَر عليه، فذهب إلى قيصر ملك الشام ، فكتب إلى النجاشى ملك الحبشة، فأرسل معه جيشاً من نصارى الحبشة يقدمهم أرياط وأبرهة ، فاستنقذوا اليمن من أيدى اليهود، وذهب ذو نواس هارباً فَلَجَّج فى البحر، فغرق . واستمر مُلْكُ الحبشة فى أيدى النصارى سبعين سنة ، ثم استنقذه سيف بن ذى يزن الحميرى من أيدى النصارى ، لما استجاش بكسرى ملك الفرس ، فأرسل معه من فى السجون ، وكانوا قريباً من سبعمائة ، ففتح بهم اليمن، ورجع الملك إلى حمير. وسنذكر طرفاً من ذلك ـ إن شاء الله ـ فى تفسير سورة : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١ /٤٨ ـ ٥٠) .

رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ .

وقال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أنه حُدِّث: أن رجلاً من أهل نجران كان فى زمان عمر بن الخطاب ، حَفَر خَرِبَة من خَرِب نجران لبعض حاجته ، فوجد عبد الله بن الثامر تحت دَفْن فيها قاعدا ، واضعا يده على ضربة فى رأسه ، ممسكا عليها بيده ، فإذا أخذت يده عنها ثَعبتْ دما ، وإذا أرسلت يده رُدّت عليها ، فأمسكت دمها ، وفى يده خاتم مكتوب فيه : ربى الله .

فكُتب فيه إلى عمر بن الخطاب يخبره بأمره ، فكتب عمر إليهم : أن أقرّوه على حاله ، وردّوا عليه الدّفن الذى كان عليه . ففعلوا (١) .

وقد قال أبو بكر بن أبى الدنيا عن بعض أهل العلم : إن أبا موسى لما افتتح أصبهان وجد حائطا من حيطان المدينة قد سقط ، فبناه فسقط ، ثم بناه فسقط ، فقيل له : إن تحته رجلاً صالحاً . فحفر الأساس فوجد فيه رجلا قائماً معه سيف ، فيه مكتوب : أنا الحارث بن مضاض ، نقمت على أصحاب الأخدود . فاستخرجه أبو موسى ، وبنى الحائط ، فثبت.

قلت: هو الحارث بن مضاض بن عمرو بن مُضاض بن عمرو الجرهمى ، أحد ملوك جرهم الذين ولوا أمر الكعبة بعد ولد نَبْت بن إسماعيل بن إبراهيم، وَوَلَدُ الحارث هذا هو: عمرو بن الحارث بن مضاض هو آخر ملوك جرهم بمكة، لما أخرجتهم خزاعة وأجلوهم إلى اليمن ، وهو القائل فى شعره الذى قال ابن هشام إنه أول شعر قاله العرب :

كَأن لَم يَكُنْ بَين الحَجُون إلى الصّفا أَنيسٌ ، ولم يَسمُر بمكَّةَ سَامِرُ
بَلَى ، نَحنُ كُنَّا أهلَهَا فأبادَنَا صُروفُ اللَّيالى والجُدودُ العَوَاثِرُ

وهذا يقتضى أن هذه القصة كانت قديما بعد زمان إسماعيل ، عليه السلام ، بقرب من خمسمائة سنة أو نحوها ، وما ذكره ابن إسحاق يقتضى أن قصتهم كانت فى زمان الفترة التى بين عيسى ومحمد، عليهما من الله السلام ، وهو أشبه ، والله أعلم . وقد يحتمل أن ذلك قد وقع فى العالم كثيراً .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى : حرّقوا. قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن أَبزَى . ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ أى: لم يقلعوا عما فعلوا ، ويندموا على ما أسلفوا. ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾، وذلك أن الجزاء من جنس العمل .

قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ٥١) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) ﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ .

ثم قال : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أى : إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذَّبوا رسله وخالفوا أمره لشديد عظيم قوى ؛ فإنه تعالى ذو القوة المتين ، الذى ما شاء كان كما يشاء فى مثل لمح البصر ، أو هو أقرب ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ أى : من قوته وقدرته التامة يبدئ الخلق ثم يعيده كما بدأه ، بلا ممانع ولا مدافع ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ أى : يغفر ذنب من تاب إليه وخَضَع لديه ، ولو كان الذنب من أى شيء كان . و﴿ الْوَدُودُ ﴾ ـ قال ابن عباس وغيره : هو الحبيب ، ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ أى: صاحب العرش العظيم العالى على جميع الخلائق . و﴿ الْمَجِيدُ ﴾ فيه قراءتان : الرفع على أنه صفة للرب ،عز وجل . والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى صحيح . ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أى : مهما أراد فعله ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ؛ لعظمته وقهره وحكمته وعدله ، كما روينا عن أبى بكر الصديق أنه قيل له ـ وهو فى مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب ؟ قال : نعم . قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال لى : إنى فعال لما أريد .

وقوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ . فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ أى : هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النقمة التى لم يردها عنهم أحد ؟ وهذا تقرير لقوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أى : إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً أليماً شديدا ، أخذ عزيز مقتدر . وقوله : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ أى: هم فى شك وريب وكفر وعناد ، ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ أى : هو قادر عليهم ، قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه ، ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾ أى : عظيم كريم ، ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ أى : هو فى الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل . وقال الحسن البصرى : إن هذا القرآن المجيد عند الله فى لوح محفوظ ، ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه .

تفسير سورة الطارق

وهى مكية

روى عبد الله ابن الإمام أحمد عن خالد بن أبى جَبَل العَدْوانى : أنه أبصر رسول الله ﷺ فى مُشرّق ثَقيف وهو قائم على قوس ـ أو : عصا ـ حين أتاهم يبتغى عندهم النصر ، فسمعته يقول : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾، حتى ختمها ـ قال: فوعيتها فى الجاهلية وأنا مشرك ، ثم قرأتها فى الإسلام ـ قال : فدعتنى ثقيف فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم ، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقا لاتبعناه (١) . وروى النسائى عن جابر قال: صلى معاذ المغرب ، فقرأ البقرة والنساء ، فقال النبى ﷺ : « أفتان يا معاذ ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق ، والشمس وضحاها ، ونحو هذا ؟ » (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) ﴾

يقسم تعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة ؛ولهذا قال: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ ، ثم فسره بقوله : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ . قال قتادة وغيره : إنما سمى النجم طارقا؛ لأنه إنما يرى بالليل ويختفى بالنهار. ويؤيده ما جاء فى الحديث الصحيح : نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا (٣) ، أى : يأتيهم فجأة بالليل .

وقوله : ﴿ الثَّاقِبُ ﴾ قال ابن عباس : المضىء . وقال السدى : يثقب الشياطين إذا أرسل عليها . وقال عكرمة : هو مضىء ومحرق للشيطان .

وقوله : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ أى : كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات، كما قال تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ الآية [الرعد:١١] .
وقوله: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾: تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذى خُلق منه ، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد ؛ لأن من قدر على البَدَاءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ، كما قال:

(١) المسند (٤ / ٣٣٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ١٣٩) : « عبد الرحمن ذكره ابن أبى حاتم ولم يجرحه أحد وبقية رجاله ثقات » .

(٢) النسائى فى الكبرى (١١٦٦٤) ، ورواه البخارى (٧٠٥) بلفظ قريب منه .

(٣) البخارى (٥٢٤٣) .

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧] . وقوله : ﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ يعنى : المنى ؛ يخرج دَفقاً من الرجل ومن المرأة ، فيتولد منهما الولد بإذن الله ، عز وجل ؛ ولهذا قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ يعنى : صلب الرجل وترائب المرأة ، وهو صدرها. وعن ابن عباس : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾: صلب الرجل وترائب المرأة ، أصفر رقيق، لا يكون الولد إلا منهما . وكذا قال سعيد بن جُبَير ، وعكرمة، وقتادة والسُّدِّى ،وغيرهم . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ قال: هذه الترائب.ووضع يده على صدره.وقال الضحاك وعطية، عن ابن عباس: تَريبة المرأة موضُع القلاَدة. وكذا قال عكرمة ، وسعيد ابن جُبَير . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الترائب : بين ثدييها. وعن مجاهد : الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر . وعنه أيضا : الترائب أسفل من التراقى. وعن قتادة : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ : من بين صلبه ونحره .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذى خرج منه لقادر على ذلك . قاله مجاهد ، وعكرمة ، وغيرهما .

والقول الثانى : إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق ، أى : إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر ؛ لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة .

وقد ذكر الله ،عز وجل ،هذا الدليل فى القرآن فى غير ما موضع،وهذا القول قال به الضحاك، واختاره ابن جرير ، ولهذا قال : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ أى : يوم القيامة تبلى فيه السرائر، أى : تظهر وتبدو، ويبقى السر علانية والمكنون مشهورا .وقد ثبت فى الصحيحين ، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال :« يرفع لكل غادر لواء عند استه ، يقال : هذه غَدْرَةُ فلان بن فلان » (١).

وقوله : ﴿ فَمَا لَهُ ﴾ أى: الإنسان يوم القيامة ﴿ مِن قُوَّةٍ ﴾ أى: فى نفسه ﴿ وَلا نَاصِرٍ ﴾ أى : من خارج منه ، أى : لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله ، ولا يستطيع له أحد ذلك .

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾

قال ابن عباس: الرجع: المطر. وعنه : هو السحاب فيه المطر . وعنه : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ : تمطر ثم تمطر.وقال قتادة : ترجع رزق العباد كل عام ، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم . وقال ابن زيد : ترجع نجومها وشمسها وقمرها ، يأتين من هاهنا . ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ

(١) البخارى (٣١٨٨) ومسلم (١٧٣٥ /٩) .

الصَّدْعِ ﴾ قال ابن عباس : هو انصداعها عن النبات . وكذا قال سعيد بن جُبَير، وعكرمة ، وقتادة ، وغير واحد .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ : قال ابن عباس : حق . وكذا قال قتادة .وقال آخر : حكم عدل . ﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ أى : بل هو حق جد .

ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله، فقال : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ أى: يمكرون بالناس فى دعوتهم إلى خلاف القرآن .ثم قال: ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى: أنظرهم ولا تستعجل لهم ، ﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ أى: قليلا . أى : وترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك، كما قال : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤] .